

کامل عزیزی

قصص علمیه

DUDARAB



الصديقتان



دارالمعارف

عادل كبراني

قصص علمية

# الصديقان

الطبعة العاشرة



دار المعارف

## الصديقتان

١ - احتجابُ «أم خِدَاش»

كَانَتْ «أُمُ يَغْفُورَ» وَ «أُمُ خِدَاشَ» صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَيْنِ .  
وَكَانَتْ كِلْتَاهُمَا تُحِبُّ الْأُخْرَى ، وَتُخْلِصُ لَهَا ، وَتَمَحَضُّهَا الْوُدَّ ،  
وَلَا تَأْلُو جُهْدًا فِي إِرْضَائِهَا ، وَلَا تَضُنُّ عَلَيْهَا بَعْرِيْرَ وَلَا غَالٍ ،  
وَلَا تُخْفِي عَنْهَا شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِهَا . وَكَانَتَا تَأْكُلَانِ - مَعًا - مِنْ  
صَحْفَةٍ وَاحِدَةٍ (طَبَقٍ وَاحِدٍ) ، وَتَعِيشَانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ . وَقَدْ نَشَأَتَا  
وَتَرَعَرَعَتَا وَشَبَتَا مُتَحَالِفَتَيْنِ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْحُبِّ .

أَمَّا «أُمُ يَغْفُورَ» فَهِيَ كَلْبَةٌ صَغِيرَةٌ جَدًّا ، وَهِيَ ظَرِيفَةٌ صَفْرَاءُ  
الْإِهَابِ (الْجِلْدِ) ، أُنِيقَةُ الْجِلْبَابِ .  
وَأَمَّا صَدِيقَتُهَا «أُمُ خِدَاشَ» فَقِطَّةٌ  
كَبِيرَةٌ ، ذَاتُ شَعْرِ حَرِيرِيٍّ ، وَلَهَا ذَنْبٌ  
يُغَطِّيهِ الشَّعْرُ الْكَثِيفُ .



وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ احْتَجَبَتْ «أُمُ خِدَاشَ» عَنْ صَدِيقَتِهَا ، وَلَمْ  
تَأْتِ لِتَحِيَّتِهَا ، عَلَى عَادَتِهَا . وَبَحَثَتْ «أُمُ يَغْفُورَ» فِي سَلَّةِ

«أُم خِدَاش» الَّتِي أَلْفَتِ الرُّقَادَ فِيهَا ، فَلَمْ تَعُثُرْ لَهَا عَلَى أُثَرٍ .  
فَحَارَتْ «أُم يَعْفُورَ» ، وَلَمْ تَذَرِ سِرًّا احْتِجَابِ صَدِيقَتِهَا الْعَزِيزَةِ ،  
وَحَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَلَمَ بِهَا طَائِفٌ سَوْءٍ .  
فَقَالَتْ «أُم يَعْفُورَ» الْوَفِيَّةُ :

«إِنَّ هَذَا الْحَسَاءَ لَا يَزَالُ غَالِيَا (شَدِيدَ الْحَرَارَةِ) ؛ فَلَا صَبْرَ  
قَلِيلًا ، حَتَّى يَبْرُدَ ، لَعَلَّ صَدِيقَتِي «أُم خِدَاش» تَأْتِي لِتَشْرَكَنِي  
فِي الطَّعَامِ .»

ثُمَّ جَلَسَتْ «أُم يَعْفُورَ» عَلَى رِجْلَيْهَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ ، وَظَلَّتْ  
تَسْتَنْشِقُ بُخَارَ الْحَسَاءِ الْمُتَصَاعِدِ بِفِيهَا الْأَسْوَدَ ، وَتَتَأَمَّلُ فِي  
الصَّخْفَةِ ، وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِهَا :

«لَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنَ كُلَّ شَيْءٍ ! فَإِنَّ «أُم خِدَاش» أَخْبَرَتْنِي  
ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهَا مُتَفَاجِئُ - بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ - مُفَاجَأَةٌ مُدْهِشَةٌ .  
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي : أَيْةٌ مُفَاجَأَةٌ أَعَدَّتْهَا لِي ؟»

وَاشْتَدَّ «أُم يَعْفُورَ» الْفَلَقُ ، فَسَارَتْ حَائِثَةً تَبْحَثُ عَنْ صَاحِبَتِهَا  
فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَتَشُمُّ أَرْكَانَ الْبَيْتِ وَمَخَابِئَهُ ، عَلَّهَا تَهْتَدِي  
إِلَيْهَا

٢- أطفال «أُم خِدَاش»

وَانْتَهَى بِهَا الْمَطَافُ إِلَى غُرْفَةِ الْغُسْلِ الصَّغِيرَةِ ، فَبَضْبَصَتْ  
(حَرَكَتْ ذَنْبَهَا) مَسْرُورَةً بِتَوَفِّيْقِهَا ، وَرَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى صُنْدُوقِ  
فَوْقِ الرَّفِّ ، ثُمَّ حَيَّتْ صَدِيقَتَهَا مُبْتَهَجَةً ، قَائِلَةً : «سُعِدَ يَوْمُكَ  
يَا «أُم خِدَاش» .»

لَقَدْ سَاوَرَنِي الْفَلَقُ عَلَيْكَ ، فَمَاذَا أَخْرَكَ عَنْ تَحِيَّةِ صَدِيقَتِكَ؟  
وَمَاذَا تَصْنَعِينَ فَوْقَ هَذَا الرَّفِّ الْعَالِي ؟»



فَقَالَتْ «أُم خِدَاش» :

«إِنِّي مُفْضِيَةٌ إِلَيْكَ بِأَمْرِ يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ : لَقَدْ

فَوَجِئْتُ مُفَاجَأَتَ خَمْسًا ، وَرَأَيْتُ غَرَائِبَ خَمْسًا . . . !  
فَلَمْ تَفْهَمْ « أُمُّ يَغْفُورَ » شَيْئًا مِمَّا تَغْنِيهِ ، وَرَفَعْتَ فَاها فِي الْهَوَا  
وَهِيَ حَاتِرَةٌ ، فَسَمِعْتَ صَوْتَ طِفْلٍ صَغِيرٍ يَنْبُعُ فَجَاءَ مِنْ  
الصُّنْدُوقِ مُجْتَمِعًا :

« مِيا . . . وُ ! مِيا . . . وُ ! أُمَاهُ ! »

فَادْرَكَتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » السَّرَّ فِي احْتِجَابِ « أُمِّ خِدَاشِ » ،  
وَوَلَّتْ تَقْفُزُ فِي الْغُرْفَةِ ، عَلَى ثَلَاثِ أَرْجُلٍ ، مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ ،  
كَمَا تَفْعَلُ الْكِلَابُ إِذَا اسْتَوَى عَلَيْهَا الطَّرْبُ وَالْفَرَحُ . ثُمَّ هَنَأَتْهَا  
بِهَذِهِ الْقِطَاطِ الْعَزِيزَةِ . فَقَالَتْ « أُمُّ خِدَاشِ » مَرْهُوَةٌ فَرَحَانَةً :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّمَا مُفَاجَأَتُ خَمْسٌ ؟ نَعَمْ . فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ  
مِنْ هَذِهِ الْأَوْلَادِ الْخَمْسَةِ هُوَ مُفَاجَأَةٌ سَارَّةٌ . فَاَنْظُرِي بِرَبِّكَ إِلَى  
هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعَزِيزَةِ ، الَّتِي مَلَأَتْ قَلْبِي سَعَادَةً وَإِعْجَابًا ! »

وَوَلَّتْ « أُمُّ خِدَاشِ » تَلَحُّسَ بِلِسَانِهَا جِلْدَ أَوْلَادِهَا الْقِطَاطِ ،  
ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً :

« آه لَوْ تَعْلَمِينَ كَيْفَ فُئِنْتُ بِحُبِّ هَذِهِ الْأَطْفَالِ الصَّغِيرَةِ !  
إِنَّهَا زِينَةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا ، وَمَصْدَرُ سَعَادَتِنَا وَمَبْعَثُ أَنْسِنَا .

فَهَلُمِّي - أَيْتُهَا الْحَبِيبَةُ - فَاَنْظُرِي أَطْفَالِي الْأَعْزَاءَ . فَإِنِّي  
أَعْرِفُ بِمِقْدَارِ شَغْفِكَ بِالْأَطْفَالِ ، وَحَدِّكَ عَلَيْهِمْ . هَلُمِّي  
فَاعْصِدِي إِلَيَّ - يَا « أُمُّ يَغْفُورَ » - وَتَسْلُقِي هَذَا اللَّوْحَ الصَّغِيرَ .

فَوَقَفَتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » مُسْتِنِدَةً إِلَى الْحَائِطِ ، وَحَاوَلَتْ أَنْ  
تَتَسَلَّقَ اللَّوْحَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ - لِصِغَرِ جَسْمِهَا - وَلَمْ يَصِلْ فُوهَا إِلَى  
اللَّوْحِ . فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا : « مُحَالٌ عَلَيَّ أَنْ أَصِلَ إِلَى هَذَا اللَّوْحِ ،  
فَإِنْ أُمِّي لَمْ تَعْلَمْنِي : كَيْفَ أَتَسَلَّقُ ، كَمَا عَلَّمْتِكِ أُمُّكِ . وَلَكِنَّتُ  
أَدْرِي : مَا الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكَ هَذَا الْمَكَانَ الْمُرْتَفِعَ ؟ »

أَلَمْ يَكُنْ أَحْبَبَ إِلَيَّ وَأَهْدَى : أَنْ تَبْقَى فِي سَلْتِكَ الَّتِي  
تَنَامِينَ فِيهَا ، إِلَى جَانِبِ سَرِيرِي ؟ »

فَقَالَتْ « أُمُّ خِدَاشِ » ، وَهِيَ تَهْزُ رَأْسَهَا مُتَعَجِّبَةً مِنْ غَفْلَةِ  
صَدِيقَتِهَا : « شَدَّ مَا تُخْطِئِينَ فِي حُكْمِكِ ، يَا « أُمُّ يَغْفُورَ » .  
عَلَى أَنِّي أَلْتَمِسُ لَكَ الْعُذْرَ ، لِأَنَّكِ مَا تَزَالِينَ طِفْلَةً ، غَيْرَ مُجَرَّبَةٍ .  
وَأُحِبُّ أَنْ أَبْصُرَكَ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الْقِطَّةَ الذَّكِيَّةَ الْحَازِمَةَ ،  
تَرَى مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُخْفِيَ أَبْنَاءَهَا - دَائِمًا - فِي الظَّلَامِ ، حَتَّى  
لَا تَقَعَ عَلَيْهِمْ عَيْنُ كَانِنٍ كَانَ ، فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِمْ .

على أَنِّي لَنْ أَبْخَلَ عَلَيْكَ بِرُؤْيَا وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَهُوَ أَجْمَلُهُمْ  
شَكْلًا ، وَأَبْهَامُ مَنْظَرًا ، لِأَنَّهُ مُرْقَشٌ بِالْوَانِ ثَلَاثَةً ، وَلَيْسَ فِي  
الْقِطَاطِ أَجْمَلُ مَنْ يَجْمَعُ هَذَا الْعَدَدَ مِنَ الْأَلْوَانِ . وَقَدْ أَسَمَيْتُهُ :  
أَبَا الشَّرْقِ .

وَنَهَضَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» وَوَضَعَتْ صَغِيرَهَا «أَبَا الشَّرْقِ» عَلَى  
عُنُقِهَا - فِي خِفَّةٍ وَرِشَاقَةٍ - حَتَّى لَا تُزْعِجُهُ ، وَقَفَزَتْ إِلَى اللَّوْحِ ،  
وَهِيَ رَافِعَةٌ رَأْسَهَا ، حَتَّى لَا يَنْسَقُطَ مِنْهَا صَغِيرُهَا الْحَبِيبُ .  
ثُمَّ وَضَعَتْهُ عَلَى اللَّوْحِ ، وَهِيَ مَزْهُوَةٌ تَائِهَةٌ بِهِ أَمَامَ صَدِيقَتِهَا ،  
وَقَالَتْ لَهَا :

« كَيْفَ تَقُولِينَ ؟ لَا جَرَمَ أَنَّهُ جَمِيلٌ ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »  
فَتَرَاجَعَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» خُطْوَةً ، وَنَظَرَتْ إِلَى «أَبِي الشَّرْقِ»  
مَدْهُوَشَةً تَعْجَبُ مِنْ رَأْسِهِ الْمُسْتَلْدِيرِ ، وَعَيْنَيْهِ الْمُقْفَلَتَيْنِ ،  
وَجِسْمِهِ اللَّيِّنِ ، وَذَنْبِهِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَخْتَلِجُ .  
فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» لِصَاحِبَتِهَا ، وَهِيَ تُرَبِّتُ - فِي رَفْقٍ  
وَحَنَانٍ - قِطْنَهَا الصَّغِيرَةَ الْمُغْمَضَةَ الْعَيْنَيْنِ :  
« أَلَسْتُ تَرَيْنَهُ بَدِيعًا ، يَا أُمُّ يَغْفُورَ ؟ »

فَاقْتَرَبَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»  
مِنْ «أَبِي الشَّرْقِ» ، وَشَمَّتْهُ  
- وَهِيَ مُرْتَجِفَةٌ مُنْفَسِحَةٌ  
الْأَرْجُلِ - وَقَالَتْ خَجَلَةً :

« لَا جَرَمَ أَنَّ «أَبَا الشَّرْقِ» لَطِيفٌ ، وَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ جَمَالًا حِينَ  
يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ ! »

٣ - غَضَبُ «أُمِّ خِدَاشٍ»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» مَحْزُونَةً :

« كَيْفَ يَزْدَادُ جَمَالًا ؟ إِنَّهُ سَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ قَرِيبًا . أَلَا  
تَعْرِفِينَ أَنَّ الْقِطَاطَ جَوِيعًا - بَعْدَ أَنْ تُولَدَ - تَطْلُ عَمِيَاءَ مُدَّةَ أَيَّامٍ  
ثَمَانِيَةٍ أَوْ تِسْعَةٍ ؟ عَلَى أَنِّي لَا أَرَى وَلَدِي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ  
الْجَمَالِ ، فَهُوَ عِنْدِي أَجْمَلُ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَائِنَاتِ .  
أَفَاهِمَةٌ أَنْتِ مَا أَقُولُ ، أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْغَافِلَةُ ؟ فَإِذَا لَمْ  
تَفْهَمْ هَذَا الْكَلَامَ ، وَلَمْ تُؤْمِنِي بِهِ ، فَانْصَرِفِي - مِنْ قَوْلِكَ -  
وَلَا تُرِينِي وَجْهَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ ! »



ثُمَّ أَمْسَكَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» بِمَوْلُودِهَا الْحَبِيبِ ، وَقَفَزَتْ إِلَى صُنْدُوقِهَا مُغْضَبَةً مُخَفَّةً .

وَعَجِبَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» مِمَّا رَأَتْ عَجَبًا شَدِيدًا . وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ - فِي صَاحِبَتِهَا - إِلَّا دَمَائَةَ الْخُلُقِ ، وَلَيِّنَ الْعَرِيكَةِ ، وَلَمْ تَرَ غَضَبَهَا إِلَّا فِي هَذَا الْيَوْمِ .

وقد أدهشها ما رآته من تَلَهُّبِ عَيْنَيْهَا ، وَإِمَاعِهَا فِي إِسَاءَتِهَا وَالسُّخْطِ عَلَيْهَا ، وَحَزَنِهَا حُزْنَ صَدِيقَتِهَا . ثُمَّ قَالَتْ لَهَا مُتَأَلِّمَةً :

«لَا عَلَيْكَ - يَا عَزِيزَتِي «أُمُّ خِدَاشٍ» - فَإِنِّي لَمْ أَتَعَمَّدْ إِغْضَابَكَ ، وَلَمْ أَقْصِدْ إِلَى إِسَاءَتِكَ . وَإِنِّي مُعْذِرَةٌ عَمَّا فَرَطَ مِنِّي . وَسَتَرَيْنَ : كَيْفَ أَحْبَبْتُ نِلْكَ الْقَطِيطَاتِ الْعَزِيزَاتِ ؟»

وَلَكِنْ «أُمُّ خِدَاشٍ» لَمْ تَهَذَا ثَائِرَتُهَا ، فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ يَغْفُورَ» :

«وَدِدْتُ لَوْ تَعْلَمِينَ ، يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةِ . . .»

فَقَاطَعَتْهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» صَائِحَةً :

«لَسْتُ صَدِيقَةً لَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَا أَحِبُّ أَنْ تَتَخَذَنِي صَدِيقَةً بَعْدَ الْآنَ .

فَقَدْ صَحَّ مَا قَالَتْهُ لِي أُمِّي : إِنَّ الْكِلَابَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخْلِصَ فِي صِدَاقَتِهَا لِلْقَطِيطِ .

وَكَيْفَ تَضْفُو قُلُوبُنَا ، وَنَحْنُ لَمْ نُنْشَأْ تَنْشِئَةً وَاحِدَةً ، وَلَمْ نَدِنْ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ ؟

فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» :

«لَا تَنْتَسِي أَنَّنَا - عَلَى ذَلِكَ - مِنْ أَسْرَةِ وَاحِدَةٍ .»

فَقَالَتْ لَهَا : «لَسْتُ أَشْكُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ فَصِيلَتَنَا وَاحِدَةً ، لِأَنَّنَا جَمِيعًا مِنْ آكِلِي اللَّحْمِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَصِيلَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ :

قِسْمًا : مُهَذَّبَ الْخُلُقِ ، وَقِسْمًا : غَلِظَ الطَّبْعِ .»

فَصَاحَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» مُعَاتِبَةً :

«مَا أَحْسَبُكَ تَعْنِينَنِي بِهَذَا التَّعْرِيزِ .»

فَقَالَتْ لَهَا : «مَا عَنَيْتُ سِوَاكَ - يَا «أُمُّ يَغْفُورَ» - فَإِنَّ

الْكِلَابَ غَيْرُ مُهَذَّبَةٍ ، وَقَدْ عَرَفْتَهُمُ الْقِطَاطُ جَمِيعًا بِسُوءِ الْأَدَبِ ، وَغِلَظِ الطَّبَاعِ . وَأَنَّى لَكُمْ التَّهْذِيبُ ، وَدَمَائَةُ الْخُلُقِ ؟ أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ وَالتَّعَالِبُ الْمَاكِرَةُ أَبْنَاءُ أَغْمَامٍ ؟ أَلَيْسَتْ الذَّنَابُ الْقَاسِيَةُ

الفتاة - في الغابات - من بنات أعمامكم الأذنين كذلك ؟  
فألت « أم يعفور » :

« ليس من خطئي - أيتها العزيزة - أن تكون الثعالب  
والذئاب من أبناء أعمامنا ، وبنات عماتنا !  
على أنني أذكر ما حدثتني به - ذات يوم - إذ قررت  
أماي أن الأسد من أقاربك ، وهو - فيما أعلم - وحش ضار ،  
قايى القلب !  
فألت « أم خدش » :

« لست أنكر هذا ، فإن السبع هو ابن عى بلا شك . وإن  
بذلك لفخورة مزهوة ؛ لأنه نبيل عظيم ، بعيد الهمة ، عزيز  
النفيس . وهو ملك الحيوان ، وسيدنا الأمير المطاع . ونحن من  
الأمرء ، لأننا من تلك الأسرة الملوكية السامية .

فلا غرو إذا دان لنا الناس بالاحترام والإجلال ، فلم يطوؤوا  
أعناقنا بالسلاسل والأطواق ، كما يفعلون معكم ، معشر الكلاب ؛  
لأننا ولدنا وعشنا أحراراً ، لا سلطان لأحد علينا !  
وكانما ضجرت القطيقات الصغيرات بهذا الحوار الطويل ،

فانبعث مؤاؤها خافتاً من قاع الصندوق . فألت « أم خدش »  
إلى أطفالها ، وقد اضطجعت على جانبها ، وفسحت أرجلها ،  
وجنجت قليلاً . فسكت صغارها ، ومدوا ألسنتهم باحثين عن  
ثدي أمهم - يمنة ويسرة - وظلت ألسنتهم الوردية الصغيرة تطقطق  
بصوت خافت ، وظلت أمهم تلحسهم ، وهم يرضعون ، وهى حانية  
عليهم . ثم قالت تداعب « أبا الشرق » : « يا لك من شره !



لقد ظلمت تطعم عشر دقائق كاملة ، دون أن تشبع ! ألا تترك  
ثدي لإخوتك الآخرين ؟ إن أختك المسكينة « أم الشرق »  
نحيلة مهزولة الجسم ، وقد همى ضعفها ، وأقلق بالى ، فهى  
لم تنطق بكلمة واحدة ، منذ ولادتها إلى الآن .



وهي ليست بكلمة فيما أرى. فما سرُّ صغفها وهزالها ؟  
شَدَّ ما يُزْعِجُ الأُمَمَاتِ مَرَضُ أبنائهنَّ !

#### ٤- حُلْمُ مُزْعِجٍ

ونعودُ إلى «أمِّ يَغْفُورٍ» تلك الكلبة الوفية المخلصة، لنرى :  
ماذا حدثَ لها ؟ لقد رَكَدَتْ عندَ بابِ العُرْقَةِ الصغيرة ، وظَلَّتْ  
تلتفتُ يَمَنَةً وَيَسَرَةً ، وتُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً :

« إنَّ صديقتي «أمَّ خِدَاشٍ» ليست - فيما أعْلَمُ - حمقاء .  
ولعلَّ سِرَّ انزعاجها ، ومصدرَ غضبها ، أنها لم تنلْ حظَّها من التَّوَمِ  
المُريِّحِ ، فاضطربتْ لذلك ، وغَلِبَتْ على أعصابها . وسأصبرُ  
عليها حتَّى تنزلَ ، فأقفزَ إلى رقبتهَا ، لأُقبلَهَا ، وأزيلَ كُلَّ ما في  
نفسها من غُيْبٍ ومَوْجِدَةٍ . »

وإنها لتُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِذَلِكَ ، إذ طَرَقَ سَمْعُهَا صوتُ يناديها !  
فوقفتْ «أمَّ يَغْفُورٍ» ، والتفتتْ إلى صديقتهَا ، قائلةً :

« إلى اللِّقَاءِ يا صديقتي العزيزة ! إن سيِّدِي «الوليدَ» يُناديني  
« يا أمَّ خِدَاشٍ » . ولا بدَّ لي من تلبيةِ دعوته . فهل غفرتِ لي

زَلَّتِي ، أيتها الصديقة ؟ »

فلم تُجِبْها «أمَّ خِدَاشٍ» بكلمةٍ واحدةٍ . فذهبتْ «أمَّ يَغْفُورٍ»  
محزونةً ، وتدلَّى ذَنْبُهَا مِنَ الأَلَمِ ، واغرورتْ عيناها بالدموعِ .

أما صاحبُتها «أمَّ خِدَاشٍ»

فقد شغلها أمرُ أبنائها ، فظلت  
تُرْضِعُهُمْ - واحدًا واحدًا - حتَّى إذا  
أفطروا وقفتْ منشأبةً ، رافعةً  
ذَيْلَهَا ، مقوسةً جسمَهَا . ثم قالتْ  
لأطفالها :

« لقد آنَ لكم أَنْ تناموا - أيها

الأعزَّاء - فقد اشتدَّ بي أَلَمُ الجوعِ . ولا بدَّ لي من التَّيَمِّينِ نصيبي  
من القُوَّةِ . وقد سالَ لُعَابِي شَوْقًا إلى لَحْمِ الفَأْرَةِ . ولا مَعْدِي لي  
عن جَوْلَةٍ أَجُولُهَا في مَخْزَنِ الغِلَالِ لاصطيادِ فَأْرَةٍ . وسأعودُ إليكم  
بَعْدَ أَنْ أُوقِفَ في مَسْعَايَ . وسترونَ أَنَّ لَحْمَ الفَأْرَةِ هو أَشْهَى  
طعامٍ في الدُّنْيَا . »

ورأت سيِّدَتَهَا «سُلَاقَةً» الصغيرة - وهي تَجْتَازُ المَطْبَخَ -



فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تُدَاعِبُهَا ، مُتَعَلِّقَةً بِشَوْهَا الْأَنِيقِ ، ثُمَّ وَصَعَتْ طَرَفَ لِسَانِهَا فِي الصَّخْفَةِ - وَقَدْ جَوَّقَتْهُ فَأَصْبَحَ كَالْمِلْعَقَةِ - وَالتَّهْمَتْ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ طَعَامٍ . ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى مَقْعَدٍ وَثِيرٍ ، فَرَقَدَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدِرَ التَّفَّ جِسْمُهَا وَتَحَوَّى ، حَتَّى أَصْبَحَ مِثْلَ الْكُرَّةِ .

وَلَمْ تَنْسَ نَصِيحَهَا مِنَ الزَّيْنَةِ ، وَلَا حَظَّهَا مِنَ التَّبَرُّجِ وَالْأَنَاقَةِ ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى شَعْرِهَا الْمُشَعَّتِ تُرَجِّلُهُ ، وَعَلَى ذَيْلِهَا الْمَنْفُوشِ تَنْعَهُهُ بِالْعَنَايَةِ ، وَتُجِرُّ لِسَانَهَا عَلَى خُصَلَاتِ الشَّعْرِ الْبَارِزَةِ فَتَسْقُتُهَا . وَوَقَفَتْ فِي مُنْتَصَفِ عَمَلِهَا لِتَطْرُدَ بُرْعُوثًا خَبِيثًا كَانَ يَمْشَى عَلَى رَقَبَتِهَا ، وَاسْتَأْنَفَتْ عَمَلَهَا قَائِلَةً :

« لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَنْظِفَ وَجْهِي وَرَأْسِي . »

ثُمَّ بَلَّلَتْ طَرَفَ يَدِهَا الْبَيضَاءِ بِلُعَابِهَا ، وَمَرَّتْ بِهَا عَلَى رَأْسِهَا تَغْسِلُهُ ، وَتَذْلِكُهُ وَتَجَفِّفُهُ . وَهَكَذَا نَسَقَتْ هِنْدَامَهَا ، وَأَتَمَّتْ تَبَرُّجَهَا ، وَأَصْبَحَ إِهَابُهَا نَاعِمًا ، وَوَجْهُهَا نَظِيفًا ، فَتَأَهَّبَتْ لِلْخُرُوجِ .

أَمَّا صَاحِبَتُهَا « أُمُّ يَغْفُورَ » فَقَدْ صَحِبَتْ سَيِّدَهَا « الْوَلِيدَ » فِي رَحَلَةِ طَوِيلَةٍ ، وَطَافَتْ مَعَهُ خِلَالَ الْحُقُولِ الْبَدِيعَةِ ، حَتَّى أَمْسَا ؛

فَعَادَتْ مُتَعَبَةً مَجْهُودَةً ، وَذَهَبَتْ إِلَى مَرْقَدِهَا مِنْهَوَكَةً الْقَوَى ، لِتَنَامَ .

وَجَرَتْ عَلَى عَادَتِهَا - قُبَيْلَ الرُّقَادِ - فَظَلَّتْ تَحْكُ فِرَاشَهَا بِمَخَالِبِ يَدَيْهَا ، ثُمَّ تَدَوَّرُ عَلَى نَفْسِهَا مَرَّاتٍ عَدَّةً . ثُمَّ اسْتَسَلَمَتْ لِلرُّقَادِ .

وَكَانَ نَوْمُهَا - فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ - مُضْطَرِبًا ، فَقَدْ ارْتَجَفَ جِسْمُهَا - فِي أَثْنَاءِ النَّوْمِ - وَاضْطَرَبَ ذَيْلُهَا ، وَظِلٌّ يَضْرِبُ الْأَرْضَ ، وَتَصَاعَدَتْ زَفَرَاتُهَا وَأَنَاتُهَا مِنَ الْأَلَمِ .

تُرَى مَاذَا أَصَابَ « أُمُّ يَغْفُورَ » ؟

لَقَدْ رَأَتْ - فِي نَوْمِهَا - حُلْمًا مُزَعَجًا اضْطَرَبَتْ لَهُ أَعْصَابُهَا . لَقَدْ أَبْصَرَتْ صَدِيقَةَ طُفُولَتِهَا « أُمُّ خِدَاش » وَهِيَ وَاقِفَةٌ أَمَامَهَا ، وَقَدْ أَخْرَجَتْ مَخَالِبَهَا الطَّوِيلَةَ ، وَهَمَّتْ بِأَنْ تَفْقَأَ بِهَا عَيْنَيْهَا ، فَهَضَمَتْ مِنْ رُقَادِهَا مَذْعُورَةً خَائِفَةً .

٥ - بَعْدَ أُسْبُوعٍ

وَمَضَى أُسْبُوعٌ طَوِيلٌ ، وَالْقَطِيعَةُ مُسْتَحْكِمَةٌ بَيْنَ الصَّدِيقَتَيْنِ . فَقَالَتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » - ذَاتَ يَوْمٍ - وَهِيَ تَحَدِّثُ نَفْسَهَا :

«مَهْمَا تُمَعِنُ صَدِيقَتِي فِي هَجَرِهَا وَغَضِبِهَا ، فَإِنِّي أُحِبُّهَا ،  
كَمَا أُحِبُّ أَوْلَادَهَا جَمِيعًا ، وَإِنْ شِئْتُ إِلَى رُؤْيَتِهِمْ لَشَدِيدٌ .»

ثُمَّ لَمَحَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» سَائِرَةً فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَتْ فِي  
نَفْسِهَا : «هَاهَا . هَاهَا ذِي صَدِيقَتِي خَارِجَةً ، فَمَاذَا عَلَى إِذَا ذَهَبْتُ  
لِرُؤْيَةِ قَطِيطَاتِهَا الْعَزِيزَاتِ ؟»

ثُمَّ أَسْرَعَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» إِلَى غُرْفَتِهَا الصَّغِيرَةِ ، وَوَقَفَتْ  
تَحْتَ صُنْدُوقِهَا ، وَسَمِعَتْ مُوَاهِنَ الْمُعْجَبِ الْمُطْرَبِ ، وَرَأَتْهُنَّ  
خَارِجَاتٍ إِلَى حَافَةِ الصُّنْدُوقِ .

فَقَالَتْ : «هَاهَا ذِي عَيْنُوهُنَّ قَدْ تَفَتَحَتْ ، فَاصْبِرِي أَكْثَرَ  
جَمَالًا ، وَأَبْهِي مَنَظَرًا مِمَّا كُنَّ مِنْذُ أُسْبُوعٍ . لَعَلَّكُنَّ تَرُدْنَ  
النُّزُولَ ، آيَتِهَا الصَّغِيرَاتُ ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ هَاهَا ذَا قِطٌّ يُطِلُّ  
بِرَأْسِهِ الْكَبِيرِ ، وَيَنْخَبِئِي خَارِجَ الصُّنْدُوقِ ، فَيُعَرِّضُ ، نَفْسَهُ لَخَطَرِ  
السَّقُوطِ عَلَى الْأَرْضِ .»

ثُمَّ صَاحَتْ - مَذْعُورَةً - تَقُولُ : «عُذِّ إِلَى مَكَانِكَ مِنَ  
الصُّنْدُوقِ ، أَيُّهَا التَّاعِيسُ ، فَإِنَّكَ تَسْتَهْدِفُ لِلْوُقُوعِ .»

وَلَمْ تَكُذِّ تَتِيمٌ جُمْلَتَهَا ، حَتَّى هَوَى الصَّغِيرُ مُتَلَخِّرِجًا

كَالْكُرَّةِ ، وَسَقَطَ رَأْسُهُ وَسَطَ إِنَاءٍ مَمْلُوءٍ مَاءً . وَبَدَلَ الصَّغِيرُ كُلَّ مَا فِي  
وُسْعِهِ لِإِنْقَاضِ نَفْسِهِ مِنَ الْغَرَقِ ، فَظَلَّ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، سَابِحًا  
- جُهْدَ طَاقَتِهِ - وَهُوَ رَافِعٌ أَنْفَهُ الْوَرْدِيَّ . وَسُرْعَانَ مَا أَذْرَكَهُ  
الْإِغْيَاءُ ، وَتَسَرَّبَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ إِلَى فَمِهِ ، فَاشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ ،  
وَعَوْتُ يَطْلُبُ النُّجْدَةَ صَاحِبًا :

«مِياؤ ! مِياؤ ! أَذْرِكْنِي يَا أُمَاهُ ! أَغِيْثْنِي يَا أُمَاهُ !»  
فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» :  
«يَا لَهَذَا الصَّغِيرِ التَّاعِيسِ الْمُسْكِينِ ! إِنَّهُ - لَا مَحَالَةَ - هَالِكٌ .  
فَمَاذَا أَصْنَعُ لِإِنْقِذِهِ ؟»

ثُمَّ عَنَتْ لَهَا فِكْرَةً رَشِيدَةً مُفَاجِئَةً ، فَفَقَزَتْ إِلَى الْإِنَاءِ  
مُسْرِعَةً . وَكَانَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» - كَمَا أَشْلَفْنَا - صَغِيرَةً جَدًّا ،  
فَوَصَلَ الْمَاءُ إِلَى أُذُنَيْهَا ، وَلَكِنْ مَرُوءَتَهَا أَبَتْ عَلَيْهَا أَنْ تَتْرَكَ ذَلِكَ  
الْمُسْكِينَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَوْتِ أَمَامَ عَيْنَيْهَا ، فَلَمْ تُبَالِ مَا تَسْتَهْدِفُهُ  
مِنْ خَطَرٍ ، وَأَمْسَكَتْ بِرَبْقَةِ الْقِطِّ الصَّغِيرِ ، وَفَقَزَتْ بِهِ ، وَهِيَ  
تَحْمِلُهُ إِلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ .

وظَلَّ «أَبُو الشَّرْقِي» يَغْطِشُ وَيَرْتَعِشُ ، وَرَقَدَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»

الطَّيِّبَةُ الْقَلْبِ إِلَى جَانِبِهِ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ ، تَوَسَّيَهُ وَتَذَنَّهُ ، وَتَمَسَّحَهُ  
بِلِسَانِهَا اللَّطِيفِ ، وَتَحْنُو عَلَيْهِ - حُنُو الْأُمَمَاتِ عَلَى أَطْفَالِهَا -  
وَتَهْوُنُ عَلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنْ أَلَمٍ وَهَمٍّ . وَإِنَّهَا لَتُغْنِي بِهِ ، إِذْ دَوَّتْ  
صَبِيحَةُ عَالِيَةِ فِي الْمَكَانِ ، فَتَلَقَّتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » ، فَرَأَتْ أَمَامَهَا  
« أُمُّ خِدَاشٍ » تَكَادُ تَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَهِيَ تَقُولُ لَهَا مُهْتَاجَةً ثَائِرَةً :

« مَاذَا تَصْنَعِينَ هُنَا ، أَيَّتُهَا السَّفِيهَةُ ؟ »

فَارْتَاعَتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهَا رُغْبًا .

فَقَالَتْ « أُمُّ خِدَاشٍ » مُغْضَبَةً : « كَيْفَ جَرَّوْتِ عَلَى أَنْ

تَغْسِلِي وَلَدِي ، مِنْ غَيْرِ أَنْ

تَسْتَأْذِنِي فِي ذَلِكَ ؟ »

فَقَالَتْ « أُمُّ يَغْفُورَ » ، وَهِيَ

تَكَادُ تَذُوبُ مِنْ فَرْطِ الْحَبَرَةِ

وَالِاضْطِرَابِ :

« اِصْنَعِي لِي يَا « أُمُّ خِدَاشٍ » ،

فَمَا أَنَا بِخَادِعَتِكَ ، وَلَا بِكَادِيَتِكَ الْخَبِيرِ :

لَقَدْ سَقَطَ وَلِلْكَ الصَّغِيرُ « أَبُو الشَّرْقِ » فِي حَوْضِ الْمَاءِ ،



وَكَانَ يَقْفِزُ لَاهِيًا قَوْقَ الصُّنْدُوقِ وَ... »

فَقَالَ « أَبُو الشَّرْقِ » ، وَهُوَ يَبْكِي :

« لَقَدْ صَدَقْتُكَ الْقَوْلَ - يَا أُمَاهُ - وَقَدْ هَوَيْتُ إِلَى حَوْضِ

الْمَاءِ ، عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ ، وَأَشْرَفْتُ عَلَى الْغَرَقِ ، وَلَوْلَاهَا لَأَصْبَحْتُ فِي

عِدَادِ الْهَالِكِينَ . »

فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا « أُمُّ خِدَاشٍ » ، وَقَدْ أَكْبَرَتْ لَهَا تِلْكَ الْمَرْوَةَ ،

وَشَكَرَتْ لَهَا صَنِيعَهَا ، وَقَالَتْ لَهَا فِي صَرَاعَةٍ وَخُشُوعٍ :

« مَنْ لِي بِمُكَافَأَتِكَ عَلَى هَذِهِ الْبَيْدِ الْبَاقِيَةِ ، الَّتِي لَنْ أَنْسَاهَا

لَكَ مَدَى الْحَيَاةِ ؟ لَقَدْ أَسْلَفْتُ إِلَيْكَ الْإِسَاءَةَ ، وَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ

تَجْزِيَنِي عَلَيْهَا بِالْإِحْسَانِ . فَهَلْ تَغْفِرِينَ لِي زَلَّتِي ، أَيَّتُهَا الصَّدِيقَةُ

الْكَرِيمَةُ الْبَارَةُ ؟ »

فَامْتَلَأَ قَلْبُ الْكَلْبَةِ فَرَحًا ، وَظَلَّتْ تَقْفِزُ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ ،

قَائِلَةً : « لَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ . »

عَلَى أَنَّ لَنْ أَنْسَى أَنَّي كُنْتُ سَبِيًّا - مِنْذُ أَيَّامٍ - فِي إِسَاءَتِكَ

وَلِإِغَارِ صَدْرِكَ عَلَيَّ . وَقَدْ تَمَّتْ سَعَادَتِي - الْآنَ - بَعْدَ أَنْ سَادَ

الْصَّفَاءُ قَلْبَيْنَا ، وَعُدْنَا صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَيْنِ . »

وَأَسْرَعَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» إِلَى صَغِيرِهَا - وَكَانَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ وَهُوَ مُلْقَى عَلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ - فَحَمَلَتْهُ بِأَسْنَانِهَا ، وَأَعَادَتْهُ إِلَى الصُّنْدُوقِ ، وَظَلَّتْ هَذِهِ الْكَارِثَةُ شُغْلَهَا الشَّاعِلَ ، طَوْلَ يَوْمِهَا .

٦ - بعد ثلاثة أسابيع

وَمَرَّتْ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ أَسَابِيعُ ثَلَاثَةٌ ، وَأَصْبَحَتْ الْخَمْسُ الصَّغِيرَاتُ قَادِرَةً عَلَى اللَّعِبِ فِي غُرَفِ الْبَيْتِ ، وَالْجَرَى فِي فَنَائِهِ وَبِرْدَابِهِ .



وَظَلَّتْ تَقْفِيزُ وَتَتَدَحْرَجُ مَا شَاءَتْ لَهَا رَغَبَاتُهَا ، وَتَشْتَبِكُ - بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ - فِي مَنَاوَسَاتٍ ظَرِيفَةٍ . وَيُطَارِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا ،

وَفَقَّ مَا تَشْتَهِي وَتُرِيدُ .

وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِي» يَلْعَبُ فِي عُرْلَةٍ عَنْ إِخْوَتِهِ . وَيَدُورُ بِذَنَبِهِ ، كَمَا تَدُورُ النَّحْلَةُ ، وَيُدَاعِبُ ذَيْلَهُ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مَذْهُوشًا كُلَّمَا رَأَى يَسْبِقُهُ فِي أَثْنَاءِ جَرِيهِ ، ثُمَّ يَغْضَبُ مِنْهُ وَيَثُورُ نَائِرُهُ عَلَيْهِ ، فَيَنْشِبُ أَنْيَابُهُ فِي ذَيْلِهِ وَيَعَضُّهُ ، ثُمَّ يَصْرُخُ مِنْ فَرْطِ الْأَلَمِ ، وَيُسْرِعُ إِلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ ، نَادِمًا عَلَى عَمَلِهِ ، ثُمَّ لَا يَلْبِثُ - بَعْدَ أَنْ يَنْسَى الْأَلَمَ - أَنْ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ مَا صَنَعَ !

أَمَّا «خِدَاشُ» فَقَدْ كَانَتْ لَا تُفَارِقُ أُمَّهَا فِي حَلٍّ وَتَرَحُّالٍ . وَكَانَتْ أُمُّهَا تَضَعُ يَدَيْهَا الْبَيْضَاوَيْنِ عَلَى رَقَبَةِ «خِدَاشِ» ، ثُمَّ



تَحْكُ «خِدَاشُ» أَنْفَهَا الصَّغِيرَ الْوَرْدِيَّ بِإِنْفِ أُمِّهَا مُتَوَدِّدَةً

مُتَلَفَّةً . وَقَدْ سَعِدَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» بِأَبْنَائِهَا الْأَعْرَاءِ ، وَكَانَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» تُشَاطِرُهَا هَذِهِ السَّعَادَةَ ، وَتَفْرَحُ لِفَرَحِهَا .

وَكَانَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» تَقْسُو - أحياناً - عَلَى وَلَدِهَا «أَبِي غَزْوَانَ» رَغْبَةً فِي تَقْوِيمِهِ وَتَهْنِئِهِ ، لِأَنَّهُ تُحِبُّ أَنْ تُنْشِئَ أَوْلَادَهَا أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ ، وَتَطْبِعَهُنَّ عَلَى غِرَارِ الْقَطَاطِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَتَعُودَهُنَّ النِّظَامَ وَالطَّاعَةَ وَحُسْنَ الْأَدَبِ . وَلَا تَأَلَوُ جُهْدًا فِي غَسْلِهِنَّ وَتَنْظِيفِهِنَّ دَائِمًا .

وَكَانَ «أَبُو غَزْوَانَ» - عَلَى الْحَقِيقَةِ - مَصْدَرَ عَنَائِهَا وَأَلَمِهَا ، لِأَنَّهُ شَرُّ الطَّبَعِ ، مُحِبٌّ لِلْمُشَاكَسَةِ ، مِيَالٌ إِلَى الْأَذَى . وَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ تَرَى فِيهِ صُورَةَ كَامِلَةِ لِعَمِّ «أَبِي السَّنَانِيرِ» . وَهُوَ قِطْعُ هَرَمٍ ، يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي الْمَخَاطَرَاتِ ، وَاقْتِنَاصِ الطُّيُورِ ، وَالْجَرِيِّ عَلَى الْمِيَازِيرِ .

وَكَانَتْ تُكَافِي «الْمُؤَدَّبَ بِقَارَةَ» ، تَضْطَاضُهَا لَهُ !

٧ - تَفَرَّقُ الشُّمْلُ

وَعَادَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» - ذَاتَ مَسَاءٍ - مِنْ تَجَوُّلِهَا ، وَفِي

فَعِهَا قَارَةُ ، وَقَفَزَتْ إِلَى صِنْدُوقِهَا فَرَحَانَةً ، وَهِيَ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً :

«مَا أَشَدَّ فَرَحَ أَوْلَادِي بِهِذِهِ الْهَدِيَّةِ الثَّمِينَةِ ، وَمَا أَشَدَّ ابْتِهَاجَهُمْ بِهِذِهِ الْأَكْلَةِ الْفَاحِشَةِ !»

وَمَا لِنْ وَضَعْتَ رِجْلَهَا فِي الصُّنْدُوقِ ، حَتَّى أَخْرَجَتْهَا مَذْهُولَةً حَائِرَةً ، وَطَفِئَتْ تَعْدُو فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ كُلِّهِ مَشْدُودَةً وَلَهَى ، وَتَصِيحُ بِصَوْتٍ مَتَهَدِّجٍ مَبْحُوحٍ : «إِلَى يَا أَوْلَادِي ! تَرَى : أَيْ حَادِثِ أَلَمٍ بِكُمْ؟ إِلَى يَا أَبَا الشَّرْقِ ! إِلَى يَا أُمَّ الشَّرْقِ ! إِلَى يَا خِدَاشَ !» فَلَا تَسْمَعُ جَوَابًا .

وَبَحَثَتْ تِلْكَ الْأُمُّ النَّاعِسَةُ الْمِسْكِينَةُ - فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْبَيْتِ وَسَرَادِيْبِهِ ، وَمَخَابِيْهِ وَأَفْنِيَّتِهِ ، وَفِي مَخْزَنِ الْغِلَالِ - عَنْ أَوْلَادِهَا ، فَلَمْ تَعُثِرْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ . ثُمَّ لَقِيَتْ «أُمَّ يَغْفُورَ» قَادِمَةً عَلَيْهَا ، وَهِيَ مَحْزُونَةٌ كَسِيرَةُ الْقَلْبِ ، مُطَاطِئَةُ الرَّأْسِ ، فَاسْرَعَتْ إِلَيْهَا تَسْأَلُهَا عَنْ أَوْلَادِهَا ، فَجَمَجَمَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» فِي لَهْجَةِ حَزِينَةٍ : «لَمْ يَبْقَ مِنْ أَوْلَادِكَ ، إِلَّا «أَبُو الشَّرْقِ» وَحْدَهُ . وَهُوَ يَبْكِي تَحْتَ السُّلَمِ ، أَمَّا إِخْوَتُهُ فَقَدْ أُخِذُوا جَمِيعًا . وَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَضَعُهُنَّ فِي

سَلْتِهِ وَيَحْمِلُهُنَّ خَارِجَ الْبَيْتِ . فَاشْتَدَّ غَضَبِي وَانْزَعَجِي لِذَلِكَ .  
وَهَمَمْتُ أَنْ أَقْفِزَ فِي وَجْهِهِ ، وَظَلَلْتُ أَمْلَأُ الْبَيْتَ نُبَاحًا ، وَأَبْحَثُ  
عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَيْكَ .  
ثُمَّ سَمِعْتُ سَيِّدَتَنَا تَقُولُ : إِنَّ  
الْقِطَاطَ قَدْ حُمِلَتْ إِلَى دُكْرَتِهَا  
الْكَبِيرَةِ ، الْمَمْلُوءَةِ بِأَسْرَابِ الْفَارِ لِمُطَارَدَتِهَا ، وَسَيُعْنَى بِهَا الْخَدَمُ  
الْعَنَاءَ كُلَّهُا .



فَخَفَّفَ مِنْ وَجْدِي «أُمُّ خِدَاشَ» وَجَزَعِيهَا ، مَا عَلِمْتُهُ مِنْ  
حِرْصِ سَيِّدَتِهَا عَلَى أَبْنَائِهَا الْقِطَاطِ ، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ أَيَّامًا طَوَالًا  
تَجْرِي فِي الْغُرْفِ وَالْحَدِيقَةِ وَالطَّرِيقِ ، وَهِيَ تَمُوءُ فِي حُزْنٍ وَأَلَمٍ ،  
مُنَادِيَةً أَبْنَاءَهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْوَجْدِ وَالْأَمْسَى عَلَى  
فِرَاقِهِمْ .

#### ٨- «أُمُّ يَغْفُورَ» وَوَلَادَةُ «أُمِّ يَغْفُورَ»

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ تَتَرَى . وَذَا صَبَاحٍ دَخَلْتُ «أُمُّ خِدَاشَ»  
الْمَطْبَخَ ، فَاسْتَرَعَى بَصَرُهَا شَيْءَ غَرِيبٍ فِيهِ . فَاشْتَدَّ عَجْبُهَا

مِمَّا رَأَتْ . وَكَانَتْ لَا تُطِيقُ أَنْ تَرَى أَقْلَ تَغْيِيرٍ يَخْدُثُ فِي الدَّارِ ،  
فَقَوَّسَتْ ظَهْرَهَا ، وَقَالَتْ - تُحَدِّثُ نَفْسَهَا - مُتَعَجِّبَةً : «أَيُّ  
شَيْءٍ هَذَا ؟ إِنَّهَا سَلَّةٌ جَدِيدَةٌ !» وَأَبَتْ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهَا ، مَخَافَةَ  
أَنْ يُصِيبَهَا سُوءٌ . فَتَرَجَعَتْ عَنْهَا خُطُوَاتٍ إِلَى الْوَرَاءِ ، وَلَبِثَتْ  
تَرْفُفُهَا حِينًا . فَلَمَّا رَأَتْهَا سَاكِنَةً لَا يَتَحَرَّكُ فِيهَا شَيْءٌ اطمأننت  
نَفْسُهَا ، وَاقْتَرَبَتْ مِنَ السَّلَّةِ ، وَتَسَلَّقَتْ حَافَتَهَا ، وَأَطْلَتْ بِرَأْسِهَا  
فِيهَا ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا حَشِيشًا يَابِسًا مُعْطَرًا ، فَلَمْ تَذَر : مَاذَا يُرَادُ بِهِ ؟  
وَوَظَلَّتْ تُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ ، فَلَمْ تَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللَّغْزِ الْخَفِيِّ .

وَأَنَّهَا لَغَارِقَةٌ فِي تَفَكُّيرِهَا ، إِذْ قَدِمَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» وَحَبَّتْهَا  
قَائِلَةً :

«أَلَا تَعْرِفِينَ - يَا أُمُّ خِدَاشَ - أَنَّ هَذِهِ السَّلَّةَ ، هِيَ سَرِيرِي  
الْجَدِيدُ ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ بِالْإِفْضَاءِ إِلَيْكَ - مُنْذُ أَيَّامٍ - بِهَذَا السَّرِّ  
يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ .»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» : «أَيُّ سَرٍّ تَغْنِينَ ؟»  
فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» : «إِعْلَمِي أَنَّنِي سَأُصْبِحُ أُمًّا بَعْدَ قَلِيلٍ .  
وَقَدْ أَحْضَرْتُ لِي سَيِّدَتِي «سُلَافَةَ» هَذِهِ السَّلَّةَ مَسَاءَ أَمْسٍ

وقالت لى : « هالك سَرِيرَكِ الجديدَ ، أَيْتُها الكلبَةُ الأَمِينَةُ المُخْلِصَةُ ، ليستريحَ فيه أولادُكِ الأعزَّاءُ . وقد فَطَنْتِ نِلْكَ الفتاةَ الذَّكِيَّةَ إلى حقيقةِ أَمْرِى ، وأدركتِ السَّرَّ الذى حَجَبْتُهُ عَنْ جَمِيعٍ مَنِ فى البيتِ . وقد كُنْتُ أُوَوِّرُ أَنْ أَفَاجِئَهُمْ بِمَا يُدْهِشُهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ أَذْرَكُوا كُلَّ شَيْءٍ ! »

ومَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلٌ ، وامتلأَ البيتُ فَرَحًا بولادةِ « أُمِّ يَعْفُورٍ » . وكانتِ « سُلَافَةُ » مبتهجةً بِذَلِكَ ، وقد امتلأَ قَلْبُهَا سرورًا ، حينَ رَأَتْ أَمَامَهَا ثَلَاثَةَ أَجْسَامٍ صَحْمَةٍ تَمَلَأُ قَاعَ السَّلَةِ .



وَسُرْعَانَ مَا قَدِمَتْ « أُمُّ خِدَاشٍ » لَتُهْنَى صَدِيقَتِهَا ، وتقولُ لها :

« شَدِّ مَا بَهَجَنِي وَلادُتْكِ ، أَيْتُها

الصَّدِيقَةُ الحَبِيبُ . وَلَكِنِّي شَدِيدَةُ العَجَبِ مِمَّا أَرَى ، فَإِنَّ أَوْلَادُكِ لَا يُشْبِهُونَكَ فى أَىِّ سِمَةٍ مِنْ سِمَاتِكَ ، حَتَّى لَيُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَرَاهُمْ أَنَّهُمْ أَغْرَابٌ عَنْكَ ! »

ثم التفتتْ إلى أَحَدِ أَبْنَائِهَا قائلةً :

٢٩ « لَكَ اللهُ أَيُّهَا الصَّغِيرُ اللطيفُ ، مَا أَجْمَلَ شَعْرَكَ الجَدَّ ، وَأَذْنَيْكَ الطويلتين !

ماذا أَسَمَيْتَهُمْ ، يَا أُمُّ يَعْفُورَ . »

فَقَالَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » وَوَجْهَهَا يَتَطَلَّقُ بِشْرًا وَسُرورًا :

« أَمَّا هَذَا الكَلْبُ السَّمِينُ ، فَقَدْ أَسَمَيْتُهُ « الوَاشِقَ » .

وسَيَكُونُ - فِيمَا أَتَوَسَّم - طَيِّبَ القَلْبِ ، لَا يُحِبُّ الخِصَامَ .

وَلَا يَجْنَحُ إِلَى الأَذَى . أَمَّا تِلْكَ الكَلْبَةُ الجَائِمَةُ أَمَامَكَ . فَقَدْ

دَعَوْتُهَا « أُمُّ وَاذِعٍ » . وَأَمَّا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ ، فَقَدْ أَسَمَيْتُهُ « وَثَابًا » .

وهو - فِيمَا أَحْدِسُ - مَشَاكُسٌ .

فإن مَخَايِلَ الشَّرَاسَةِ تَبْدُو عَلَيْهِ ، فهُوَ - فِيمَا يُلَوِّحُ - أَخْبَثُ

مَنْ قَرَدٍ ! »

فَقَالَتْ « أُمُّ خِدَاشٍ » مُعَابِثَةً مُدَاعِيَةً :

« شَدِّ مَا ظَلَمْتَ القِرَدَةَ . فَهَلَا قُلْتَ : إِنَّهُ أَخْبَثُ مِنْ إِنْسَانٍ ! »

٩ - مَرَضَ « أُمُّ يَعْفُورَ »

وكان الصغارُ يَطْعُمُونَ ، والصديقتانِ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ ، وَتَرْعِيَانِهِمْ

بِعَيْنٍ كُلُّهَا حُنُوً وَإِخْلَاصً . ثُمَّ قَالَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » :



«إِصْنَعِي لِي» ، فقد حَانَ وَقْتُ الاعتذارِ إِلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْهَفْوَةِ  
الَّتِي أَتَيْتَهَا حِينَ ؛ مِنْذُ فَإِنِّي أَرَى أَنَّ صِغَارِي عُمِيَانٌ أَيْضًا . وَلَا أَرَى  
فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُصُ مِنْ حُسْنِهِمْ وَجَمَالِهِمْ . بَلْ إِنِّي لِأَرَاهُمْ قَدْ  
اسْتَوْفَوْا غَايَاتِ الْجَمَالِ وَالرُّوعَةِ !

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» : «كُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي قَدْ نَسِيتُ  
مَوْجِدَّتِي عَلَيْكَ ، مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَذْكُرُهَا قَطُّ .  
وَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ رُؤْيَا أَطْفَالِكَ يَلْعَبُونَ مَعَ وَلَدِي  
«أَبِي الشَّرْقِ» . وَسِيرِي فِيهِمْ خَيْرٌ رَفَقَةٍ : يَأْنَسُ بِهِمْ ،  
وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِمْ .

فَشَكَرَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» لَصَدِيقَتِهَا «أُمُّ خِدَاشَ» كَرَمَ  
نَفْسِهَا ، وَصَفَحَهَا عَنِ الْإِسَاءَةِ . وَأَخَذَتْ نَفْسَهَا - مِنْذُ ذَلِكَ  
الْيَوْمِ - بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا ، وَالْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ . وَلَزِمَتْ فِرَاشَهَا ، بِإِذْلَةٍ  
كُلِّ وَتُسْعِهَا فِي السَّهْرِ عَلَى أَطْفَالِهَا ، وَتَعَهُدُهُمْ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ  
إِلَيْهِ ، شَأْنَ الْأُمَمَاتِ دَائِمًا . وَأَصْبَحَتْ لَا تَتَفَكَّرُ فِي التَّجَوُّالِ وَالْجُرَى ،  
وَأَقَرَّتْ أَنَّ تَتَعَهَّدَ أَسْرَتَهَا عَلَى كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهَا .

وَلَمَّا فَتَحَ الْكِلَابُ الصَّغَارُ أَعْيُنَهُمْ - لِلْمَرَّةِ الْأُولَى - كَانَتْ

أُمَّهُمْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنِ الْفَرَحِ بِهَذَا الْمُفَاجِئَةِ السَّارَةِ ، لِأَنَّ  
الْمَرَضَ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - قَدْ حَلَّ بِهَا ، وَنَهَكَ قُوَاهَا . وَقَدْ شَكَتْ  
إِلَى صَدِيقَتِهَا «أُمِّ خِدَاشَ» - حِينَ قَدِمَتْ لَزِيَارَتِهَا فِي ذَلِكَ  
الصَّبَاحِ - مَا حَلَّ بِهَا مِنَ السَّقَامِ ، وَقَالَتْ لَهَا فِي لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ :  
«لَقَدْ قَضَيْتُ - أُمِّسَ - لَيْلَةً مُفْزَعَةً هَائِلَةً ، وَلَا أَدْرَى :

مَاذَا أَصَابَنِي ؟

وَقَدْ عَافَتْ نَفْسِي - مِنْذُ ظَهَرَ أُمِّسَ - وَعَجَزْتُ عَنْ تَعَهُدِ  
صِغَارِي الضَّعَافِ . وَلَسْتُ أَدْرَى : كَيْفَ يَوُولُ أَمْرَهُمْ ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» : «إِنْ شِئَاءُكَ مَيْسُورٌ ، فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ  
لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ، وَلِكُلِّ مَرَضٍ عِلَاجًا شَافِيًا . وَلَعَلَّ أَمَّاكَ قَدْ عَرَفْتَكِ  
بِذَلِكَ النَّبَاتِ الْقَصِيرِ ، الَّذِي يَنْبُتُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ ، وَحَدَّثْتُكَ  
عَنْ فَائِدَتِهِ الْمُحَقَّقَةِ . فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَجِيبَةِ ، مَا يَكْفُلُ  
لَكَ الشِّفَاءَ الْعَاجِلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» : «إِنِّي مُلَبِّيَّةٌ نَصِيحَتِكَ ، فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ  
بِحِرَاسَةِ أَوْلَادِي ، حَتَّى أَتَّكِلَ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» : «حَبَا وَكَرَامَةً لَكَ ، يَا أُمُّ يَغْفُورَ .»  
 وَقَدْ خَفَّ أَلَمُ الْكَلْبَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ بِنَصِيحَةِ صَاحِبَتِهَا ،  
 وَشَكَرَتْ لَهَا حَسَنَ رَأْيِهَا . ثُمَّ وَدَّعَتْهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» لِتُنْجِزَ بَعْضَ شَأْنِهَا .  
 وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ ، طَفِقَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» تَلْحُسُ وَلَدَهَا  
 «أَبَا الشَّرْقِ» - بَعْدَ أَنْ أَتَمَّتْ غَدَاءَهُ - ثُمَّ أَسْرَعَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا ؛  
 فَحَزَنَتْهَا مَا رَأَتْهُ عَلَيْهَا مِنْ أَمَارَاتِ الضَّعْفِ وَالْأَلَمِ . فَقَدْ وَجَدَتْهَا  
 مَطْرُوحَةً عَلَى الْأَرْضِ ، لَا حَرَكَاتٍ بِهَا ، وَقَدْ جَمَدَتْ سَوْقُهَا ، وَسَكَنَ  
 ذَنْبُهَا ، فَأَصْبَحَتْ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ !



فَصَرَحَتْ مُتَأَلِّمَةً :

«وَيْلَاهُ ! لَقَدْ مَاتَ صَدِيقِي الْحَمِيمُ !»

فَتَحَرَّكَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» حَرَكَةً صَغِيرَةً ، وَهِيَ تَرْتَعِشُ ،  
 وَتَتَنَفَّسُ بِجَهْدٍ جَهِيدٍ . فَسَأَلَتْهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» فِي صَوْتٍ مَمْلُوءٍ  
 حُؤْنًا وَإِشْفَاقًا :

٣٣ «أَلَمْ يُجِدِ الدَّوَاءَ الَّذِي وَصَفْتُهُ لَكَ ، يَا عَزِيزَتِي ؟»  
 فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ ، وَقَدْ كَادَتْ تَخْنُقُهَا  
 الْعَبْرَاتُ :

«كَلَّا - يَا أُمُّ خِدَاشٍ - لَقَدْ انْتَابَتْنِي حُمَى خَبِيثَةٌ ،  
 وَأَصْبَحْتُ أُحِسُّ أَنَّ فَمِي يَلْتَهَبُ . وَزَادَ حُزْنِي ، وَأَقْلَقَ بَالِي :  
 مَا سَمِعْتُهُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ !»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كَلَامَهَا قَائِلَةً : «آه لَوْ تَعْلَمِينَ وَقَعَ تِلْكَ  
 الْكَارِثَةُ الْمُفَاجِئَةُ ! لَقَدْ جَاءَ سَيِّدِي - فِي هَذَا الْيَوْمِ - وَمَا إِنَّ  
 رَأْيِي ، حَتَّى قَالَ : إِنْ «أُمُّ يَغْفُورَ» مُصَابَةٌ بِدَاءِ الْكَلْبِ ،  
 وَلَا بُدَّ مِنْ لِقَائِهَا .»

فَامْتَلَأَ قَلْبِي دُغْرًا حِينَ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ الْهَائِلَ ، وَانْقَضَ  
 عَلَى قَلْبِي انْقِضَاضُ الصَّاعِقَةِ . وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَى بَنَاتِ أَعْمَامِي  
 مُصَابَةً بِهَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ ، وَأَخَذَهَا الرِّجَالُ وَقَتَلُوهَا . وَلَسْتُ أَشْكُ  
 فِي أَنَّ مِصْرَعِي وَشَبِيكَ ، وَأَنْتِي مُلَاقِيَةٌ مِثْلَ هَذِهِ الْخَاتَمَةِ الْمُفْرَعَةِ .

فَكَيْفَ يَعْيشُ أَطْفَالِي الْمَسَاكِينُ ؟

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» ، وَالْذَّمُوعُ تَتَرَجَّعُ فِي مَاقِيهَا : «هُوَ يَئِي

عَلَيْكَ - يا أُختاهُ - ولا تَتَعَجَّلِي الحَوَادِثَ . فَعَلَّ السَّيِّدَ وَاہْمُ فِي حُسْبَانِهِ !

وَلَمْ تَتَمِّ قَوْلُهَا ، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ بَيَظَرِيٌّ ، قَوِيُّ الْبَاسِ ، وَفِي يَدِهِ حَبْلٌ . فَاقْتَرَبَ مِنْ «أُمِّ يَغْفُورَ» لِيَرْبُطَهَا بِالْحَبْلِ ، فَعَلَّا نُبَاحُهَا ، وَكَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَإِهَا الْمُحَدَّدَةِ ، وَصَاحَتْ مُتَوَعَّدَةً :



«الْوَيْلُ لِكُلِّ مَنْ يَمْسِسُنِي

بِسُوءِ !»

فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ خِدَاشَ» مُتَوَسِّلَةً ضَارِعَةً :

«يَرْبُكَ لَا تَتِمَادَى فِي عِنَادِكَ ، فَإِنَّهُمْ أَقْوَى مِنَّا ، أَيُّهَا الْعَزِيزَةُ . وَلَيْسَ مِنَ الْحَرَامَةِ أَنْ نَلْجَأَ فِي مُكَابَرَةٍ لَا تُثْمِرُ إِلَّا سُوءًا .»  
فَإِذْغَنَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» لِنَصِيحَةِ صَاحِبَتِهَا ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى أَوْلَادِهَا ، فَقَبَّلَتْهُمْ جَمِيعًا ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِمْ آخِرَ نَظَرَةٍ ، مُودَّعَةً !  
ثُمَّ جَرَّهَا الرَّجُلُ ، بَعْدَ أَنْ شَدَّهَا إِلَى حَبْلِهِ ، وَكَمَّ فَاهَا بِالْحَدِيدِ ، فَسَارَتْ تَتْبَعُهُ مَكْلُومَةٌ حَزِينَةٌ

# ١٠- مُرْضِعَةُ الْيَتَامَى

وَخَرَجَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» تَتَّبِعُ الطَّبِيبَ رَاجِعَةً ، وَمَشَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» فِي آثَرِهَا ، حَتَّى بَلَغَتْ فَنَاءَ الْبَيْتِ ، وَقَلْبُهَا مُنْقَبِضٌ حَزِينٌ ، ثُمَّ وَدَّعَتْهَا بِكَلِمَاتٍ تَفِيضُ إِخْلَاصًا وَحُؤًا ، وَتَمَنَّتْ لَهَا الرُّجُوعَ سَالِمَةً .

وَلَمَّا عَادَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» إِلَى الْبَيْتِ ، سَمِعَتْ الْيَتَامَى الثَّلَاثَةَ - أَبْنَاءَ «أُمِّ يَغْفُورَ» - يَعْوُونَ عَوَاءً مُرْتَفِعًا ، وَيُنَادُونَ أُمَّهُمْ ، مُسْتَوْحِشِينَ لِبُعْدِهَا عَنْهُمْ . فَوَقَفَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» تَنْصَبُ إِلَى عَوَائِهِمُ الْحَزِينِ لِحَظَةٍ ، وَتُفَكِّرُ فِيمَا تَفْعَلُهُ ، لِتُوسِّيَهُمْ وَتُسَلِّبَهُمْ ؛ ثُمَّ انْدَفَعَتْ إِلَى صُنْدُوقِهَا ، وَأَمْسَكَتْ وَلَدًا مِنْ عُنُقِهِ ، وَحَمَلَتْهُ إِلَى سَلَةِ الْكِلَابِ الصَّغَارِ ، قَائِلَةً :

«لَقَدْ أَصْبَحَ لِي أَوْلَادٌ أَرْبَعَةٌ ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ ؛ وَسَأَلْتَنِي - فِي سَبِيلِ تَرْبِيَتِهِمْ - مِنَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ شَيْئًا كَثِيرًا . وَلَكِنَّ الْمَرْؤَةَ وَالرَّحْمَةَ تَفْضِيَانِ عَلَى أَنْ أَحْتَمِلَ هَذَا الْوَاجِبَ ، رَاضِيَةً ، قَرِيرَةً الْعَيْنِ ؛ فَلَيْسَ لِي فِي تَرْكِهِمْ مِنْ حِيلَةٍ عَلَى أَىِّ حَالٍ !»

وظَلَّتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» تَلَحُّسَ الْكِلَابِ الثَّلَاثَةِ ، وَقَدْ أَقْبَلْنَ  
عَلَى طِفْلُهَا «أَبَى الشَّرْقِ» يَشْمَمْنَهُ وَهُنَّ مَحْزُونَاتٌ . فَقَالَتْ  
«أُمُّ خِدَاشٍ» لِيَوْلَدِيهَا :

«إِنَّكَ يَا «أَبَا الشَّرْقِ» أَكْبَرُ مِنْهُنَّ سِنًا ، فَلَتَكُنْ لَهُنَّ  
مَثَلًا صَالِحًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُهْتَدَى . وَلَيْسَ لِي أُمْنِيَّةٌ أَشْهَى إِلَيَّ  
نَفْسِي مِنْ أَنْ تَعِيشُوا جَمِيعًا - فِي وَفَاقٍ - حَيَاةً سَعِيدَةً ، وَأَنْ  
تُضَيِّحُوا جَمِيعًا إِخْوَةً مُخْلِصِينَ ، وَأَصْفِيَاءَ مُتَحَابِّينَ ، فَهَلْ وَعَيْتَ  
هَذِهِ النَّصِيحَةَ ، يَا أَبَا الشَّرْقِ ؟»

ثُمَّ انْفَتَحَتْ إِلَى الْيَتَامَى ، قَائِلَةً : «يَلُوحُ لِي أَنْكُمْ جَانِعُونَ !»  
وَنَظَرَتْ إِلَى وَلَدِهَا ، وَقَالَتْ لَهُ : «أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا الشَّرْقِ -  
فَقَدْ كَبُرَتْ سِنُكَ ، وَأَضْبَحْتَ قَادِرًا عَلَى الْأَكْلِ مَعِيَ  
فِي صَحْفَتِي ، مُنْذُ الْيَوْمِ .»

ثُمَّ رَقَدَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» قَرِيبًا مِنَ الْيَتَامَى ، وَظَلَّتْ تُرَضِعُهُمْ ،  
حَتَّى ارْتَوَوْا جَمِيعًا مِنْ لَبَنِهَا الدَّافِئِ الدِّيمِ ، فَنَامُوا قَرِيرِي  
الْأَعْيُنِ ، مُرْتَاخِي الْقُلُوبِ . وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ  
مُعْجَبًا مَسْرُورًا ، فَهَمَسَتْ أُمُّهُ فِي أُذُنِهِ قَائِلَةً : «تَعَالَ - يَا وَلَدِي -

عَلَى أَطْرَافِ أَقْدَامِكَ - فِي غَيْرِ جَلْبَةٍ وَلَا ضَوْضَاءٍ - حَتَّى لَا تُوقِظَهُمْ .  
وَهَلُمَّ ، فَالْعَبْ قَلِيلًا ، لِيَتَرَوَحَ عَنْ نَفْسِكَ .»

فَسَارَ مَعَهَا «أَبُو الشَّرْقِ» حَتَّى بَعُدَ عَنْ غُرْفَةِ الْيَتَامَى .  
وَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» فِي نَفْسِهَا : «مَا أَرْوَحَ عَهْدَ الطُّفُولَةِ  
وَأَجْمَلُهُ ! وَمَا أَسْرَعَ مَا يَنْسَى الْأَطْفَالُ هُمُومَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ بِأَيْسَرِ  
شَيْءٍ !»

وَلَمَّا حَلَّ الْمَسَاءُ ، جَاءَتْ «سُلَاقَةُ» وَالِدُهَا ، وَهِيَ  
يَعْمُشِيَانِ - فِي خِفَةٍ وَحُلُرٍ - حَتَّى لَا يُزْعِجَا الْيَتَامَى الْكِلَابَ الصَّغَارَ .  
فَقَالَتْ «سُلَاقَةُ» ، وَقَدْ وَضَعَتْ إصْبَعَهَا عَلَى فَمِهَا : «صَهْ ! صَهْ !  
( لَا تَنْبَسْ بَيْنْتَ شَفَةً ) !»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ الْمُتَحَابَّةُ - الْمُتَوَلِّفَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ الْكِلَابِ  
وَالْقِطَطَيْنِ - رَاقِدَةً جَنَبًا إِلَى جَنْبٍ .  
وَكَانَ أَنْفُ «الْوَاشِقِ» ظَاهِرَ السَّوَادِ ،  
وَقَدْ بَدَأَ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْ «أُمِّ خِدَاشٍ»

وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي نَوْمِهَا الْهَنِيِّ ، وَأَحْلَامُهَا اللَّذِيذَةِ .  
وَكَانَ رَأْسُ «وَثَابٍ» - الْمَجْعَدُ الشَّعْرِ - مُوسَدًا رَقَبَةَ «أَبَى الشَّرْقِ»



فَجَمَعَتِ «سُلَافَةُ» قَائِلَةً :

« يَا لَهَا مِنْ قِطْعَةٍ كَرِيمَةِ النَّفْسِ ، مَوْفُورَةِ الْخَنَانِ ! »

## ١١ - اجتماع السُّلَمِ

ومرَّ على غِيَابِ «أُمِّ يَغْفُورَ» خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا .

وكانتْ صَدِيقَتُهَا «أُمُّ خِدَاشِ» دَائِمَةً الْحَنِينَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ اشْتَدَّ شَوْقُهَا إِلَى رُؤَيْتِهَا ؛ وَزَادَ هَمُّهَا وَوَحْشَتُهَا ، لِانْقِطَاعِ أَخْبَارِهَا عَنْهَا . وَكَانَتْ «أُمُّ خِدَاشِ» تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ - كُلَّ صَبَاحٍ - إِلَى مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ وَهِيَ تُنَادِي بِصَوْتٍ مَحْزُونٍ تَكَادُ تَخْتَفُّهُ الْعِبَرَاتُ : «إِلَى ، يَا «أُمُّ يَغْفُورَ» ! إِلَى آيَتِهَا الْحَبِيبِ النَّائِيَةِ !»

فَلَا تَسْمَعُ - لِينْدَانِهَا - صَدَى ، وَلَا يُبْلَى دُعَاؤُهَا أَحَدٌ ، فَتَعُودُ إِلَى بَيْتِهَا ، مَهْمُومَةً الْقَلْبِ كَاسِفَةً الْبَالِ !

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمَ الْإِسَادِسَ عَشَرَ ، خَرَجَتْ «أُمُّ خِدَاشِ» - عَلَى عَادَتِهَا فِي الصَّبَاحِ - وَقَطَعَتْ فِي الطَّرِيقِ شَوَاطِئَ بَعِيدًا ، وَسَارَتْ فِيهِ - جَيِّثَةً وَذَهَابًا - مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى سَلَةِ الصَّغَارِ يَانِسَةً . وَإِنَّمَا لَتَتَعَهَّدُ بِعَنَانِهَا إِذْ طَرَقَ مَسْمَعُهَا صَوْتُ يَنْبَعُثُ مِنْ مَسَافَةٍ

بَعِيدَةٍ ، فَتَبَيَّنَتْ فِيهِ صَوْتُ صَدِيقَتِهَا «أُمِّ يَغْفُورَ» . فَسَرَتْ فِي جَسَدِهَا رَجْفَةُ الْفَرَحِ وَالذَّهْشَةِ ، وَانْدَفَعَتْ مُسْرِعَةً مِنَ السَّلَةِ ، وَهِيَ تَصِيحُ مُرَجَّبَةً بِصَدِيقَتِهَا الْحَبِيبِ ! وَتَبْعُهَا الْأَطْفَالُ - جُهْدَ طَاقَتِهِمْ - وَظَلُّوا يَسْقُطُونَ وَيَنْزَلِقُونَ ، مُتَعَثِّرِينَ فِي سَبِيلِهِمْ ؛ وَقَدْ صَاحَتْ فِيهِمْ «أُمُّ خِدَاشِ» :

« ضَاعِفُوا مِنْ عَزَائِمِكُمْ ، وَقَوُّوا

مِنْ هِمَمِكُمْ ، فَقَدْ دَانَيْنَاهَا . »

وَمَا كَادُوا يَبْلُغُونَ الْبَابَ الْخَارِجِيَّ ،

حَتَّى رَأَوْا «أُمَّ يَغْفُورَ» أَمَامَهُمْ ،

فَصَاحَتْ «أُمُّ خِدَاشِ» مُرَجَّبَةً

بِصَاحِبَتِهَا ، وَهِيَ تَقْفِزُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ :

«لَقَدْ طَالَتْ غَيْبَتُكَ ، وَاسْتَوْحَشْنَا لِبُعْدِكَ ، فَمَا أَشْعَدَّنَا

بِلِقَائِكَ !»

وَعَجَزَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» عَنِ الْكَلَامِ ، مِنْ قَرْطِ السُّرُورِ ،

وَبَكَتْ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ، وَسَالَتْ عَلَى فَمِهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ .

وَعَلَا نُبَاحُ أَطْفَالِهَا الصَّغَارِ . وَقَدْ التَفُّوا حَوْلَ أُمِّهِمُ الْعَزِيزَةِ ،



وَالْتَمَعَتْ عَيْنُهُمْ سُورًا وَغَيْطَةً ، وَتَحَرَّكَتْ أَذْنَابُهُم الصَّغْرَةَ بِهِجَةً وَحُبُورًا ، وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَمْزُجُ مَوَاهِدَهُ الْقَوِيَّ بِنُبْحَانِ الْكَلَابِ الصَّغَارِ الْفَرَحَانَةِ !

## ١٢ - جِوَارُ الْأُسْرَةِ

وَرَأَتْ «أُمُّ يَعْقُورٍ» أَطْفَالَهَا الصَّغَارَ قَدْ امْتَلَأَتْ جُسُومُهُمْ قُوَّةً وَنَشَاطًا ، وَسَمِنَتْ أَجْسَادُهُمْ ، فَلَمْ تَكُذِّ تَصَدِّقُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهَا ، فَقَالَتْ مَدْمُوشَةً : «كَيْفَ تَجِدُكَ يَا «وَنَابُ» ؟ أَلَسْتُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ ؟

فخبرني : هل كنت - في أثناء غيبتى - عاقلاً رزيناً هادئاً ؟  
وَأَنْتِ ، يَا عَزِيزَتِي «أُمُّ وَازِعٍ» ، كَيْفَ قَضَيْتِ أَيَّامَكَ بَعِيدَةً عَنِّي ؟

وَأَنْتِ يَا «وَاشِقُ» : هل فكرت في أمك التي أوحشها بعدذك ؟  
إِنِّي أَرَاكَ ضَخْمَ الْجَنَةِ ، مَمْلُوءاً صِحَّةً وَقُوَّةً !

وَمَا دَخَلَتْ الْأُسْرَةُ الْبَيْتَ ، حَتَّى أَقْبَلْتُ «سُلَافَةَ» مَرْحَبَةً بَعُودَةً «أُمُّ يَعْقُورٍ» . وَمَا رَأَتْهَا ، حَتَّى حَمَلَتْهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا ، وَلَكِنْ «أُمُّ يَعْقُورٍ» كَانَتْ مَمْلُوءَةً شَوْقًا إِلَى الْإِتْنَانِ بِأَوْلَادِهَا ، فَلَحَسَتْ

وَجَنَةَ «سُلَافَةَ» شَاكِرَةً لَهَا عَطْفَهَا ، وَحَدَّبَهَا عَلَيْهَا . ثُمَّ انْفَلَتَتْ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْهَا ، قَافِزَةً إِلَى الْأَرْضِ ، وَسَارَتْ مَعَ صِغَارِهَا صَوْبَ السَّلَّةِ ، ثُمَّ سَأَلَتْهُمْ مُتَعَجِّبَةً : «لَقَدْ كُنْتُ فِي قَلْبِي دَائِمٌ ، وَهُمْ مُقِيمٌ ، خَوْفًا عَلَيْكُمْ . فَمَنْ الَّذِي تَعَهَّدَ كُمْ بِالتَّغْذِيَةِ وَالْعَنَاءِ ؟

فَقَالُوا لَهَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ : «إِنَّمَا فَضْلُ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى أَمْنِ «أُمِّ خِدَاشٍ» الَّتِي كَانَتْ تُغَذِّيُنَا بِلَبَنِهَا ، وَتُدَلِّلُنَا ، وَتَلْحَسُنَا بِلِسَانِهَا ، وَتُحَدِّثُنَا عَنْكَ أَطْيَبَ الْأَحَادِيثِ الْمُطْمَئِنَّةِ السَّارَةِ ، وَتُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّكَ عَائِدَةٌ مِنْ رَحْلَتِكَ ، بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ !

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْقُورٍ» لِصَاحِبَتِهَا «أُمِّ خِدَاشٍ» :  
«هَذَا كَثِيرٌ ، آيَتِهَا الْأَخْتُ الْحَنُونُ ، فَقَدْ أَرَبَيْتِ فِي الْفَضْلِ ، وَتَجَاوَزْتِ فِي الْكَرَمِ ، حَتَّى هَزَلَ جِسْمُكَ ، وَسَمِنَتْ أَجْسَادُ أَوْلَادِكَ الشَّرِيفِينَ ! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَرَّ عَيْنِي بِرُؤْيَيْكُمْ ، وَقَدْ جَاءَ دَوْرِي لِأَعْنَى بَكِ الْآنَ !

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» : «لَا حَاجَةَ بَكِ إِلَى الشُّكْرِ لِي عَلَى مَا فَعَلْتَهُ ، فَإِنِّي لَمْ أَزِدْ عَلَى أَنْ فَعَلْتُ الْوَاجِبَ . فَدَعَيْتِي مِنْ هَذَا ، وَخَبِّرِينِي : أَيُّ مَرَضٍ ذَلِكَ الَّذِي أَلَمَّ بِكَ ؟

## مكتبة الكيلاني للأطفال

... وهكذا تَجَعَتْ - يا أستاذ - في أن تُحَبِّبَ إلى الأطفالِ مَكْتَبَتَهُمْ وتُفَرِّقَهُمْ بالمطالعة<sup>(١)</sup>. ولين أدرك الأطفال - برياض الأطفال - مراداً بعيداً، قد فَتَحَتْ لَهُمْ - بِمَكْتَبَةِ الأطفال - فضاءً جديداً. أدركت أرب غويومهم، وأبدلتهم أناساً من غويومهم، وبعثت لِمَعَالِ أَسْوَاقِهِمْ، وحسنت لِنَتْمِهِمْ وأخلاقِهِمْ<sup>(٢)</sup>. والأستاذ الكيلاني مَنِيحٌ مَكْتَبَةِ الأطفالِ أدبٌ عالِمٌ جديرٌ بما يَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ نَبِيلِ الأغراضِ<sup>(٣)</sup>. وإنه لبِسرُنِي - إذ أتابعُ مع التَّقديرِ هذا الجهدَ المِلِّيَّ للتواصل - أن أُلَاحِظَ بِمِقْدَارِ العناية التي تُبْذَلُ لَهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ، والفائدة التي تعودُ على النَّشءِ مِنْهُ، بِتَهْنِئَةِ أَذْهَانِ الأطفالِ وعقولِهِمْ لِنَقْلِ خَيْرِ الأفكارِ والمغاني، وتقديمها لَهُمْ على مثلِ هَذِهِ الصُّورَةِ الطَّرِيفَةِ<sup>(٤)</sup>. واللهُ يَكْفِيكَ عَلَى مَا قَدَّمْتَهُ لِلْمَرْبِيعَةِ مِنْ رَوَائِعِ أدبٍ، تُصِفُ إِلَى كُنُوزِهَا كُنُوزاً<sup>(٥)</sup>. وإني وقد تَبَيَّنْتُ هَذَا النِّجَاحَ التَّامَّ المُتَّصِلَ لَا يَنْقُصُ إِلَّا الإِعْجَابُ بِمَا تَسَاهِمُونَ بِهِ فِي سَدِّ نَقْصِ بَشَرٍ بِجَمِيعِ الآبَاءِ فِي تَعْلِيمِ أطفالِهِمْ<sup>(٦)</sup>. فَشَكَرَ اللهُ لَكَ مَا مَدَفَتْ إِلَيْهِ مِنْ تَشْتَبَةِ الطُّفْلِ مَشْهُوبِ الشَّغَفِ بِالْقِرَاءَةِ والدَّرْسِ، وموفورِ الحَظِّ مِنْ مَتَاعِ التَّسْكُرِ، مُنْعِمِ اللِّسَانِ عَلَى نَهْجِ البَيَانِ<sup>(٧)</sup>. فعي تَشْغِي مع طِبَاعِ الطُّفْلِ الشَّرِيفِ وغرائزه حَتَّى يَتَرَعَّرَ. وَتَجَلُّ الحَلَقَةُ مُتَّصِلَةً بَيْنَ المَدْرَسَةِ والْبَيْتِ فِي قِصَصٍ مُنَاسِبَةٍ مُسَاسِكَةٍ مع فِصِيَّةِ الطُّفْلِ وَعَقْلِيَّتِهِ وَبَيْنَتِهِ وَمَا يَهْوَى سَمَاعَهُ أَوْ يَسِيلُ لَوَغِيهِ، بِأَسْلُوبٍ صَحِيحٍ فَصِيحٍ، إِذَا حَفَلَهُ الصَّبِيُّ صَغِيراً نَعْمَةً كَبِيراً<sup>(٨)</sup>. وَمِنْ قَمِّ يَسْبُطُ الطُّفْلُ، وَنَدَحَتْ مَلَكَتُهُ، وَأَشْرَبَتْ القُصَّةُ فِكْرَتَهُ<sup>(٩)</sup>.

فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْمُورَ» :

«لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ وَاهِمًا فِي حُسْبَانِهِ، حِينَ ظَنَّ أَنَّنِي مُصَابَةٌ بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْخَطَرِ، وَتَمَّ لِي الشِّفَاءُ بِحَمْدِ اللهِ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيبُ، وَأَصْبَحْنَا - كَمَا كُنَّا - بَعْدَ أَنْ كِدْنَا نَيَّاسُ مِنَ اللَّقَاءِ. وَإِنِّي لِأَعُدُّ هَذَا الْيَوْمَ أَكْبَرَ أَعْيَادِي، فَقَدْ تَمَّتْ لِي فِيهِ أَمَانِي، وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي».

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» وَهِيَ مُبْتَهِجَةٌ :

«وَإِنِّي لِأَرَاهُ - كَذَلِكَ - أَسْعَدَ أَيَّامِ حَيَاتِي !»

فَهَتَفَ الْأَوْلَادُ الْأَرْبَعَةُ الصَّغَارُ، وَهُمْ يَتَدَحَّرَجُونَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ قَرِيطِ السُّرُورِ، وَيَقْفِزُونَ قَفْزَاتِ الْفَرَحِ وَالْإِبْتِهَاجِ، حَوْلَ الصَّدِيقَتَيْنِ، وَقَالُوا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ :

«وَأَنَّا لَنَرَى أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَسْعَدُ أَيَّامِ حَيَاتِنَا

جَمِيعًا !»

- |                     |                      |                          |
|---------------------|----------------------|--------------------------|
| (١) أحمد لطفي السيد | (٢) أحمد نجيب الحلال | (٣) جفر ول               |
| (٤) علي ماهر        | (٥) محمد المنلاوي    | (٦) محمد جبي الدين بركات |
| (٧) محمد توفيق زفت  | (٨) محمد حلمي عيسى   | (٩) محمد علي علوية       |